أميركا تسوّق أميركا للعرب

الدعاية السياسيّة المحمومة

. أسعد أبو خليل* .

إنّ تصنيعَ الفكر، بصراحة، مثيلٌ لأفضلِ ما يَصنْعه الحائكُ

غوته

الفرضيّة الأميركيّة: نحن أغبياء!

لم يَسْبقْ في العالميْن العربيّ والإسلاميّ أن رأينا حملةً أميركيّةً مثلَ تلك التي تلت أحداثَ ١١ أيلول (سبتمبر). فالولايات المتحدة، التي تتعامل مع منطقتنا بثقةٍ مفرطةٍ بالنفس، صمّمتْ على أن تَكْسب ودّ العرب والمسلمين.[١] ولكنّها صَمّمتْ أيضًا ـ وبناءً لـ «نصيحة» بعض الأميركيّين ذوي الأصول العربيّة الذين أرادوا هم أيضًا خَطْبَ ودّ الحكومة الأميركيّة بعد ١١ أيلول ـ على أن لا يكون ذلك بتغيير تعاملها معنا بل بتسويقٍ «أفضلَ» لسياساتها وممارساتها بحقّ العرب والمسلمين داخل الولايات المتحدة وخارجها. وهكذا تمّ تعيينُ السيّدة شارلوت بيرز، التي «أَبْدعتْ» في عملها الإعلانيّ ولاسيّما عندما صَمّمت الإعلاناتِ التلفزيونيّةَ لأرزّ أَنْكِلْ بَنْز. لكنْ يبدو أنّ تسويقَ الأنكل سام أصعبُ بكثير من تسويق أَنْكل بنز (الشهيّ خلافًا للسلع السياسيّة الأميركيّة).

استعرضت السيّدة بيرز (وقد كِدْنا نقول السيّدة بَنْز) إنجازاتِها بعد عام من تعيينها، وذلك في مؤتمر صحفيّ تحدّثتْ فيه عمّا صمّمتْه من إعلانات دعائيّة رَوّجتْ فيها الفكرةَ الأميركيّةَ الساحرة. وقد اختارت الحكومةُ الأميركيّةُ نحو خمسة أميركيّين وأميركيّات مطواعين ومطواعات للّهْج بالحديث عن عظمة هذه الدولة. غير أنّ أحدًا من الصحفيّين الموجودين (بمن فيهم الصحافيّون العرب) لم يَسْأل السيّدة بيرز عن سبب غياب المعتقلين الأميركيّين العرب والمسلمين القابعين في السجون الأميركيّة من الأفلام الدعائيّة الأميركيّة.[٢] وكانت الصحافة الأميركيةُ قد بدأتْ، وبخجل شديد، نشرَ مقالات عن تعذيب المعتقلين، وأقامت الحكومة الأميركيّة مراكزَ اعتقال (أيْ تعذيب بالطبع) في ثلاثة بلدان عربيّة صديقة (ونِعْمَ الصَّديق وقتَ الضِّيق!) ـ وفي هذا فخرٌ للعرب والمسلمين الذين يؤْمنون بالوفاء.

والحال أنّ الحملة الأميركيّة الدعائيّة مبنيّة على فرضيّة بسيطة، وهي أنّ العرب والمسلمين أغبياء، وأنّ بإمكان الإدارة الأميركيّة أن تسترضيَهم في الوقت الذي تتساقط فيه القنابل الأميركيّة والإسرائيليّة على رؤوسهم. والعتاة من الصهاينة، وهم موجودون بوفرة في هذه الإدارة، يهودًا ومسيحيّين، يحثّونها على تجاهُلِ ما يُسمّى احتقارًا بـ «الشارع العربيّ»[٣] ـ وهو مصطلحٌ مهين حين تستخدمه وسائلُ الإعلام الاستعماريّة لأنّه يَخْتصر الرأيَ العامَّ العربيّ إلى تعبير يُراد به التشديد على «غوغائيّة العقل العربيّ وجنونه.» ويؤكّد غلاةُ المتطرّفين والمتطرّفات من أعداء العرب أنّنا لا نَحْترم إلاّ القوّةَ المفرطةَ، مع أنّ

---

* ـ كاتب من لبنان. بروفسور العلوم السياسيّة في جامعة ولاية كاليفورنيا ـ ستانسلاس، وزميلُ أبحاث في مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة كاليفورنيا في بيركلي. صَدَرَ له حديثًا **الحرب الأميركيّة الجديدة ضدّ «الإرهاب»** (بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٣).

١ ـ نشكّ في أن تكون حكومةُ بوش الموقّرة حريصةً على كسبِ ودّ **نساء** المنطقة، مع أنّ وزارة الخارجيّة دعت نحو خمسين امرأةً من العالم العربيّ إلى زيارة أميركا للافتتان بها.

٢ ـ طبعًا لا يُمْكن الحديث عن معتقلي غوانتانامو لأنّهم «إرهابيّون» حتى العَظْم، وإنْ لم تتمّ إدانتُهم في أيّ محكمة أميركيّة.

٣ ـ انظرْ: Fouad Ajami, "Iraq and the Arab's Future," **Foreign Affairs**, January/February 2003; and Barry Rubin, "The Real Roots of Arab Anti-Americanism," **Foreign Affairs**, November/December 2002.

الدعاية الأميركيّة تتواصل: من شارلوت بيرز المروِّجة «للفكرة الأميركيّة الساحرة» (وكانت من قبل مروِّجة لأرزّ أنْكِل بنز) إلى راديو «سوا» الموجَّه إلى الناشئة العرب

حنّة أرندت (الفيلسوفة الأميركيّة الشهيرة) كانت قد حذّرت الصهاينةَ قبل أكثر من خمسين سنةً من أنّ علاقة العرب واليهود في فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين أثْبتتْ أنّ اللغة الوحيدة التي لا يَفْهمها العربُ هي القوّة.[1] لكنّ إسرائيل والولايات المتحدة تصرّان على أنّ سياسة التخويف والإرهاب والترويع هي السياسة الفُضلى في التعامل مع العرب والمسلمين.

تاريخ الحملات الأميركيّة الدعائيّة: المناحي والاتجاهات

لعلّنا نَعْلم اليومَ الكثيرَ عن تاريخ الحملات الدعائيّة الأميركيّة حول العالم بعد اندثار الاتّحاد السوفياتيّ، وبعد نَشْرِ عدد من وثائق الحكومة الأميركيّة التي تُبْرز الدورَ الكبيرَ الذي لعبتْه الدعايةُ الأميركيّةُ في مرحلة الحرب الباردة. ويتحدّث كتاب **الحرب الثقافيّة الباردة**[2] عن أنّ الولايات المتحدة كانت تتعامل عن كثب مع شركات صُنْع الأفلام، بل كانت وكالةُ الاستخبارات المركزيّة الأميركيّة مخوّلةً رسميّاً شراءَ حقوقِ بعضِ الكتب لتصنيعها سينمائيّاً.

وهذا ما حدث مع كتاب جورج أورويل **مزرعة الحيوان**، إلاّ أنّ الحكومة الأميركيّة ألحّتْ آنذاك على تغييرات أساسيّة (وحصلتْ عليها) لأنّ أورويل كان يَسْخر في كتابه المذكور من الرأسماليّة والشيوعيّة على حدّ سواء. ومن المعلوم أيضًا أنّ مجلة **حوار** (رئيس تحريرها توفيق صايغ) لعبتْ دورًا ريادياً في الدعاية لأفكار «الحريّة» قَبْل أن يَنتشر خبرُ تمويلها من قِبل «منظّمة حريّة الثقافة،» المدعومةِ بدورها من الـ CIA، الأمرُ الذي قَضَى نهائيّاً على أيّ مصداقيّةٍ لدعاواها «الليبراليّة.»

تُوضح الوثائقُ الصادرةُ عن وزارة الخارجيّة الأميركيّة، وفقًا لـ «قانون حريّة المعلومات» Freedom of Information Act، التصوُّرَ الرسميَّ الأميركيَّ طوال عقود لكيفيّة السيطرة على العقول والتأثير في أفكار العامّة. وعلى الرُّغم من أنّ تلك الوثائق خاضعة لمراقبة شديدة، بل ثمّة صفحات مليئة بالحبر الأسود، فإنّه يُمكن استشفافُ المناحي والاتّجاهات التالية:

أولاً، إنّ الإدارات الأميركيّة المتعاقبة كانت مشغولةً بمسألة التأثير في الرأي العام الأميركيّ أكثرَ منها بمسألة التأثير في الرأي العام العربيّ. وهذه المسألة مهمّة لأنّ القوانين المرعيّة في الولايات المتحدة لا تَسْمح للحكومة وأجهزتها بالقيام بحملات دعائيّة داخل البلاد، أما اليوم فَمَنْ يأبه لمخالفات من هذا النوع في عصر التلويح الأميركيّ المستمرّ بالأعلام الأميركيّة؟ فقد أصابت حُمّى الوطنيّة الأميركيّة الكثيرَ من أهلها بالهذيان القوميّ، الذي سرعان ما يتحوّل ـ كما تُثْبت تجاربُ الأمم ـ إلى حماس للحرب واستهجان للسِّلْم. والتأثير في الرأي العامّ الأميركيّ مسألة مهمّة، ولاسيّما بعد تجربة حرب فيتنام، لأنّ تنامي حدّة معارضة الحرب من قِبل قطاعاتِ الطلاب والمثقفين أثّر في تضعضع الموقف السياسيّ الأميركيّ آنذاك.

ثانيًا، لم تكن الولايات المتحدة تعتدّ بوجود رأي عامّ عربيّ مستقلّ، بل كانت تكتفي بالتعامل مع حكوماتٍ متفاوتةِ الاستبداد لبناء أُسس الوجود الأميركيّ في المنطقة. ففي مذكّرة صادرةٍ عن قسم الشرق الأوسط في وزارة الخارجيّة الأميركيّة في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٢، مثلاً، يتحدّث المؤلِّف المجهول عن ضمانات من رئيس الجمهوريّة اللبنانيّة لتقديم لبنان

١ ـ Hannah Arendt, "Peace or Armistice in the Near East?," **Review of Politics**, January 1950, p. 56.

٢ ـ Frances Stoner Saunders, **The Cultural Cold War: The CIA and the World of Arts and Letters** (Washington DC: New Press, 2000).

«قاعدةً للقوات الأميركيّة في حال الحرب» وذلك من دون توقيع اتفاقيّات!

ثالثًا، لم تكن الولايات المتحدة تَجْهل المواقفَ العربيّة الشعبيّة الأساسيّة. فوثيقة رقم ٩٢٠٤١٠٣ الصادرة عن حملة الديبلوماسيّة العامّة في وزارة الخارجيّة تتحدّث عن التململ العربيّ من الدعم الأميركيّ لإسرائيل، وعن عدم وجود وَهْم شعبيّ عربيّ حول إمكانيّة فرض ضغط أميركيّ على إسرائيل. وصارت سفاراتُ الولايات المتحدة، بالاشتراك مع الشركات الأميركيّة العملاقة، تنسّق مواقفَها للحفاظ على المصالح الأميركيّة خوفًا من غضب «الشارع،» ولاسيّما بعد نجاح عبد الناصر في شَطْر العالم العربيّ إلى معسكريْن: واحدٍ «تقدُّميّ» مناوئ للمصالح الأميركيّة، وآخر «رجعيّ» متحالفٍ مع ما كان يسمّى آنذاك بـ «حلف بغداد.» ولعلّ الولايات المتحدة غدت أكثرَ وعيًا بأهميّة عامل «الشارع» العربيّ بعد أن فاجأتْها الثورةُ الإسلاميّةُ في إيران بالإطاحة بأقوى الأنظمة الحليفة لها في الشرق الأوسط.

الدعاية السياسيّة بعد ١١ أيلول

اشتدّت حدّةُ المعاداة لكلّ ما هو «أميركيّ» من الناحية السياسيّة بعد ١١ أيلول، وبعد حروب الثأر الأميركيّة التي لم تنتهِ بعد. وضِمْنَ هذا الإطار، وفي أجواءٍ غضبةٍ عربيّةٍ عارمةٍ من التبنّي الأميركيّ لإسرائيل، رفض وزيرُ الإعلام اللبنانيّ بثَّ الدعايات السياسيّة الأميركيّة التلفزيونيّة التي تَلْهج بالثناء على «التسامح» الأميركيّ نحو المسلمين والمسلمات.[١] ويخطئ مَنْ يظنّ أنّ الحملة الدعائيّة الأميركيّة تَهْدف إلى بناء الصداقة. على العكس: إنّها جزء لا يتجزّأ من الحملات الأميركيّة الحربيّة الواسعة. وخيرُ دليل على النوايا الأميركيّة الثابتة (حتى قبل ١١ أيلول) وثيقةٌ عسكريّةٌ ضخمة (هي كتاب في الواقع) صدرتْ في ٩ تشرين الأول عام ١٩٩٨ بعنوان: **Joint Doctrine for Information Operations** وجاء في ص I-3 أنّ أبلغ وقعٍ «لعمليّات المعلومات»[٢] يأتي في المراحل الأولى للأزمة: فالعمليّات الإعلاميّة والدعائيّة تأتي تحضيرًا لسنوات بل ولعقود من حروب أميركيّة وعمليّات عسكريّة.

هذا وقد أَنشأتْ مستشارةُ الرئيس للشؤون السياسيّة كارين هيوز قيادةً دعائيّةً مشتركةً للتنسيق في نشر الدعاية السياسيّة الأميركيّة، وذلك منذ بدء الحرب في أفغانستان. وأَعْلن مسؤولون كبار في الإدارة أنّهم باتوا متوفّرين للقاء مراسلي قناة الجزيرة من أجل «توضيح» السياسة الأميركيّة للجمهور العربيّ، بالرغم من قصف مكاتب «الجزيرة» في كابول؛ فقد وَجدت الإدارةُ الأميركيّةُ أنّ هناك حاجةً لمخاطبة العرب بلغتهم هم، لكنّها فوجئتْ بأنّ «خبراء» الشرق الأوسط الذي يَقْدرون على مخاطبة الشعب العربيّ أو الإيرانيّ أو الأفغانيّ بلغته يُعدُّون على أصابع اليد الواحدة أو أقلّ.[٣] عندها أطلّ علينا الديبلوماسيّ كريستوفر روس (وكان متقاعدًا) لأنّ الإدارة لم تجد مَنْ هو أكثرُ طلاقةً (أو أقلُّ طلاقةً) منه باللُّغة العربيّة.

كما أبدى الكونغرس الأميركيّ حماسًا فوريًّا لإنشاء محطّة سوا، التي أُوكلتْ إدارتُها للبنانيّ موفّق حرب.[٤] وكم تبدو

---

١ ـ أوقفت الولاياتُ المتحدة حملتَها الدعائيّة هذه فجأةً، ومن دون تقديم أسباب.

٢ ـ لاحِظوا كيف أنّ القيادة العسكريّة تستعير من جورج أورويل مصطلحاتِه للتخفيف من وطأة أعمالها، وهذا شبيهٌ بتسمية الدولة الصهيونيّة للاجتياح الوحشيّ للبنان عامَ ١٩٨٢ بعمليّة «سلامة الجليل!»

٣ ـ وهذا مختلفٌ عن الوضع في الجهاز الديبلوماسيّ الأوروبيّ، إذ تُشدِّد وزاراتُ الخارجيّة الأوروبيّة على ضرورة معرفة ديبلوماسيّيها للغات العالميّة.

٤ ـ كان حرب مديرًا سابقًا لتلفزيون NBN التابع لرئيس المجلس النيابيّ اللبنانيّ نبيه برّي. ولكنْ متى كان التضاربُ السياسيّ والتقلّبُ الإيديولوجيّ في بلدٍ مثل لبنان عقبةً أمام الطموح الشخصيّ ؟!

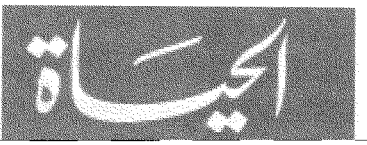

قد تدخل مسألة دمج «الحياة» وLBC في إطار الحملة الدعائيّة الأميركيّة للحرب ضدّ العراق

الإدارة الأميركيّة سعيدةً بهذه المحطّة، إذ راحت تستعين بدراسات تجاريّة لسبر أهواء الناشئة العرب الذين يتوجّه هذا المشروعُ إليهم بصورة خاصّة من أجل كسبهم إلى صفّ الحروب الأميركيّة الجارية والمستقبليّة. ويفاخِر موقعٌ رسميٌّ على الانترنت،[1] مرتبطٌ بالحملات الدعائيّة الوثيقة الصلة براديو سوا، بأنّ هذا الراديو يحتلّ المرتبةَ الأولى بين المستمعين والمستمعات في العاصمة الأردنيّة: فبين الشباب والشابّات بين سنّ ١٧ و٢٨، هناك ٤١٪ منهم ومنهنّ يستمعون ويستمعن بصورة أساسيّة إلى أخبار هذه المحطّة. وهلّل مارتن كريمر، المستشرقُ الفخورُ باستشراقه وصهيونيّته، بهذه الأنباء، وذلك على موقعه الشخصيّ على الانترنت، لأنّها تُضْعف من أهميّة قناة الجزيرة التي ماتزال تُقلق راحةَ أميركا وإسرائيل على حدّ سواء.[2] ولكنّ الإدارة الأميركيّة تَعْلم من دون شكّ أنّ نجاح محطة سوا إنّما هو نجاحٌ موسيقيٌّ محض (أيْ أنّ الفضل هو لعمرو دياب وموسيقى الراپ الأميركيّة) لا نجاحٌ سياسيٌّ. كما أَظْهر استطلاعٌ أجراه مركزُ الدراسات الإستراتيجيّة في جامعة عمّان في الأردنّ أنّ قناة الجزيرة ماتزال هي القناة الإخباريّة المفضّلة.

علاوةً على ذلك، نلاحظ اليوم أنّ الإعلام الموالي للعائلة السعوديّة المالكة (الواقعةِ في مأزق مع شعبها ومع راعيها العسكريّ في واشنطن) يحاول مساعدةَ الولايات المتحدة في ورطتها الإعلاميّة والسياسيّة وفي تسويق حربها على العراق. وأيُّ قارئ لجريدتَي **الحياة** و**الشرق الأوسط** بعد أحداث ١١ أيلول يلاحظ ضعفَ التغطية الصحفيّة لجرائم الولايات المتحدة ولضربها المتواصل للعراق (وهي تغطية أقلُّ من تلك التي توفّرها الصحفُ الأجنبيّةُ نفسُها).

وفتحت **الحياة** صفحاتِها بسخاء للمعارضة العراقيّة، في أجنحتها المرضيِّ عنها أميركيّاً طبعًا. وجال مسؤولُ هذه الجريدة في شمال العراق للحديث عن معاناة الأكراد، وتمّت التغطيةُ بمشاركة الـ أل. بي. سي.[3]

وأمّا مسألة دمج **الحياة** ومحطّة أل. بي. سي التلفزيونيّة من أجل إنشاء محطة تلفزيونيّة إخباريّة عربيّة على مدار الساعة،[4] فقد تَدْخل هي الأخرى في إطار الحملة الدعائيّة الأميركيّة للحرب ضدّ العراق. فقد تلاقت المصلحةُ الملكيّة السعوديّة (التي تَمْقت «الجزيرة» لأسباب باتت معروفة) والمصلحةُ الأميركيّة.[5]

ماذا يمكن أن نتوقّع من الدعاية السياسيّة الأميركيّة؟

بإمكان خبراء علم الرأي العامّ التخفيفُ من الحماس الأميركيّ لإمكانيّة صنع رأي

---

١ ـ عنوانُه: www.bbg.gov/bbg_news.cfm?articleID=34&mode=general

٢ ـ وفق جريدة **نيويورك تايمز** في ٢٠٠١/١٢/١٩، وفي لقاء بين جورج دبليو بوش وقياداتِ المنظّمات اليهوديّة المنضوية في مجلس خاصّ بها ينسّق التعاطي مع الدعاية الصهيونيّة في الولايات المتحدة، حثّت هذه القياداتُ الرئيسَ الأميركيَّ على التقليل من العداء الإعلاميّ العربيّ ضدّ إسرائيل والولايات المتحدة أو إزالته بالكامل. فذَكّر بوش أنّ الإدارة الأميركيّة تَفْعل ما في وسعها لتحقيق ذلك، وأنّ قناة الجزيرة هي المشكلة «الكبرى.»

٣ ـ لا ضَيْرَ من الحديث عن معاناة الأكراد، وهي حقيقيّة. لكنّ استغلالها لأهدافِ الحرب أمرٌ آخر.

٤ ـ وذلك بحسب ما جاء في حديث جهاد الخازن، المديرِ المشْرفِ على جريدة **الحياة**، في لقائه مع «الجزيرة» في كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٣.

٥ ـ في ١٠ كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٣ ظهر على أل. بي. سي. في نشرة الأخبار مسؤولُ «الدعاية» السياسيّة في وزارة الخارجيّة الأميركيّة كريستوفر روس مرّتين، وفي فقرتَيْن مستقلّتيْن. وفي اليوم التالي ذكرت **الحياة** في عرض صفحتها الأولى رقم غرفة «أبو العبّاس» في الفندق الذي نزل فيه بالقاهرة. لا تعليق.

عامّ مغاير عند العرب والمسلمين: فجون زَلِرْ[1] يُوضح أنّ الإعلام لا يَخْلق الرأيَ العامَّ وإنّما يكرّسه فحسب. لكنّ أبحاثًا أحدثَ في دراسات الرأي العامّ[2] تقول إنّ هناك إمكانيّة أكبرَ ممّا يُظَنّ للتأثير الإعلاميّ في الرأي العامّ. فالإعلام يستطيع، عبر ضرب وترٍ معيّن، أو عبر «التكرار المتكرِّر،» ترسيخَ بعض القيم وتعزيزَها. وكان مفوَّض الدعاية في الحكم النازيّ يوسف غوبلز يعرِّف الدعايةَ السياسيّةَ بأنّها «التكرار المتكرِّر.»

والحقّ أنّنا لا نستطيع منذ الآن الحُكْمَ على الحرب الأميركيّة الدعائيّة بالفشل الذريع. فإذا كانت الدعاية السياسيّة هي «التكرار المتكرِّر،» فالولايات المتحدة نجحتْ ـ حتى وإنْ لم تَشنّ حربَها ضدّ العراق بعدُ ـ في وضع مسألة السلاح العراقيّ على سُلّم الأولويّات العالميّة بل والعربيّة أيضًا. فلم يَعُدْ هناك في الساحة الرسميّة العربيّة مَنْ يَرْفض مبدأ استمرار التفتيش والعقوبات ضدّ العراق. وها هو أمين عام الجامعة العربيّة يدافع عن موقفه الداعم لعودة المفتّشين إلى العراق، مع أنّ الولايات المتحدة خَرَقتْ بصورةٍ لا تَقْبل الشكّ مهمةَ المفتّشين عبر استخدامهم (كما اعترف مفتّشون سابقون) لأهداف تجسُّسيّة لا تتعلّق بالبحث عن الأسلحة. فهل دار في خَلَدِ أمين عام الجامعة العربيّة الموقَّر أنّ القبول بعودة المفتّشين هو قبولٌ أكثرُ من ضمنيٍّ بالمبدإ الإسرائيليّ الزاعم أنّ أسلحة الدمار الشامل الإسرائيليّة لا تُضرّ بالسلام العالميّ، وأنّ أسلحة الدمار الشامل في أيدٍ عربيّة أو إسلاميّة أمرٌ غيرُ مقبول على الإطلاق؟ وهل يَعْلم أنّ سابقة عودة المفتّشين ستَسْمح للولايات المتّحدة في المستقبل بالحصول على تنازلات عربيّة سياسيّة وعسكريّة تحت طائلة التهديد بالحرب المدمِّرة؟

كما أنّ أَجَنْدة العمل الأميركيّ في منطقة الشرق الأوسط زحفتْ بتؤدة إلى صفحات الجرائد والمجلات العربيّة، وأصبحت المطالبُ الأميركيّةُ في كثير من الأحيان مطالبَ ومواضيعَ نقاشٍ عربيّةً. فحتى مفهوما «الجهاد» و«الاستشهاد» لم يَخْضعا للمناقشة إلاّ بطلب أميركيّ رسميّ، ورَضختْ جريدةُ **الحياة** المطواعة لهذا الأمر طبعًا. كما طالَ التغييرُ المصطلحاتِ نفسَها: ففي قاموس جريدة **الحياة**، مثلاً، باتت العمليّات الفلسطينيّة تعرَّف بـ «التفجيريّة!»

لكنّ الاستطلاعات تبيِّن، بما لا يَقْبل الشكّ، إجماعًا واسعًا على معارضة السياسات الأميركيّة وانحيازها إلى إسرائيل، على نحوٍ ما يُظْهر استطلاعُ منظّمة «غالوپ» الشهيرة. هذا على الرُّغم من أنّ لدى العرب، كما يبيِّن استطلاعُ منظّمةٍ شهيرةٍ أخرى هي منظّمة جون زغبي، تقديرًا لجوانب أخرى في الولايات المتحدة (مثل التعليم والأفلام والمنتوجات والحريّات، وإنْ كانت النظرةُ نحو هذه الأخيرة قد تعرَّضتْ لاهتزاز نتيجةً لما حَدَث من ممارسات وإجراءات ضدّ العرب والمسلمين داخل أميركا).

إنّ محاولة تسويق «الديموقراطيّة،» وبكلفة تَبْلغ ٢٩ مليون دولار فقط لا غير (وهي أقلُّ من ثمن طائرةٍ مقاتلة تَحْصل عليها إسرائيل في سلاحٍ جويٍّ تعدادُه بالمئات!)، إنّما تأتي في محاولة لإرضاء الرأي العامّ العربيّ المغتاظ دومًا من ازدواجيّة بل وثلاثيّة المعايير الأميركيّة، لا في ما يتعلّق بدعم الصهيونيّة وجرائمها فحسب، وإنّما أيضًا في ما يتعلّق بدعم الاستبداد العربيّ إذا كان مواليًا للولايات المتحدة. أيْ أنّ الولايات المتحدة ستُصِرّ على رفع الديموقراطيّة (كشعار فقط) إذا ما بَدَرَتْ عن أيّ نظامٍ معارضةٌ حازمةٌ للولايات المتحدة.

١ ـ John Zaller, **The Nature and Origins of Mass Opinion** (Cambridge: Cambridge University Press, 1992), p. 310.

٢ ـ انظرْ مثلاً: Benjamin Page & Robert Shapiro, **The Rational Public** (Chicago: University of Chicago, 1994)

أكثر المسلمين اللبنانيّين رفضوا دعوات السفير الأميركيّ إلى الإفطارات، و٦٧٪ من المستفتين اللبنانيّين يعتقدون أنّ انتشار الأفكار والعادات الأميركيّة شيء سيّئ

Suspicious minds
% of respondents who:*

	Think the spread of American ideas and customs is a bad thing	Dislike American ideas about democracy	Think the world would be more dangerous if another country matched America militarily	Think that when differences occur with America, it is because of (my country's) different values
Britain	50	42	60	41
France	71	53	64	33
Germany	67	45	63	37
Italy	58	37	54	44
Czech Republic	61	30	53	62
Poland	55	30	46	27
Russia	68	46	53	37
Egypt	84	na+	55	38
Jordan	82	69	63	35
Lebanon	67	45	54	35
Pakistan	81	60	51	14
Turkey	78	50	44	35
Uzbekistan	56	22	49	54
Indonesia	73	40	68	66
Japan	35	27	88	61

Source: Pew Research Centre

* Selected countries
\+ This question not allowed in Egypt

والحكومات العربيّة في حالة وهن غير مسبوق: فهي واقعة بين غضبة شعبيّة عارمة ضدّها وضدّ الولايات المتحدة وإسرائيل. وهي واقعة أيضًا تحت ضغوط أميركيّة متنامية تطالبها بتقديم مزيدٍ من التنازلات في مجال السيادة الوطنيّة ترحيبًا بالتدخُّلات الأميركيّة الوقحة، بالإضافة إلى ضغوط تطالبها بالوئام مع العدوّ الصهيونيّ. والحكومات العربيّة في كلّ ذلك تخشى على استقرار عروشها إذا ما ذهبتْ بعيدًا في محاباتها للمصالح الأميركيّة، كما تخشى من غضب الولايات المتحدة إنْ هي لم ترضخْ لكلّ ضغوطها.

لكنّ المحاولات الأميركيّة لبلورة رأي متعاطف مع السياسة الأميركيّة لا تتوقّف عند حدّ. والإدارة الأميركيّة تَفْعل ذلك بجرأةٍ ووقاحةٍ نأت عن مثلهما أيامَ الحرب الباردة. بل إنّها لا تتورّع اليومَ عن التدخّل في أمور تدريس الدين الإسلاميّ، وبعضُ الحكومات الموالية لها تَسْمح لها بالتدخّل: فالسعوديّة والكويت باشرتا تغييرَ المناهج التعليميّة إرضاءً لواشنطن. كما أنّ دولة عربيّة (لم يَذْكر السفير كريستوفر روس اسمَها) دعت الولايات المتحدة إلى الإشراف على مناهجها التعليميّة، مطالبةً بتكثيف تعليم اللّغة الإنكليزيّة على حساب اللُّغة العربيّة. وحكومات منطقة الخليج عامةً نَزعتْ عنها وريْقةَ التوت بعد أحداث أيلول وعادت إلى مرحلة المحميّات ـ وهي تَفْعل ذلك نتيجةً لغياب رادع شعبيّ أو رسميّ عربيّ: فالكلّ خائف من الوحش الأميركيّ.

ولن يكون لبنان بعيدًا عن ساحة الحرب الفعليّة والإعلاميّة التي تشنّها الولاياتُ المتحدة. واستطلاعاتُ الرأي تُظْهر أنّ شعب لبنان يكنّ العداءَ السياسيّ للولايات المتحدة، لكنْ بنسبة أقلّ من جيرانه. وهناك في لبنان مَنْ يناصب العربَ العداءَ في كلّ قضاياهم، وهذا ما يفسِّر العلاقاتِ اللبنانيّةَ السريّة عبر العقود مع إسرائيل. والولايات المتحدة، وغيرُها من الدول، استخدمتْ ساحةَ لبنان كمركز تدخُّلٍ شرق أوسطيّ. صحيحٌ أنّ دول الخليج تقدِّم، وفق أصول الضيافة العربيّة التقليديّة، كلَّ التسهيلات أمام الحروب الأميركيّة الجارية والمستقبليّة، لكنّ لبنان لا يزال يلعب دورًا في إعلام المنطقة. وهناك عدد من دُور النشر اللبنانيّة يُمْكن أن تَنْشر الفكرَ «الديموقراطيّ» والوجهَ الحسنَ لأميركا.

أمّا رئيس حكومة لبنان (الحريري) فيَسْلك مسلكَ المتذاكين العرب الآخرين، ويتوهَّم أنّ بمقدوره التأثيرَ في صُنْع القرار الأميركيّ. وهو لا ينفكّ يُعْلن، خصوصًا في مقابلاته مع الإعلام الأجنبيّ، أنّه منخرط في الحرب ضدّ «الإرهاب.»

والسفير الأميركيّ في لبنان غيرُ مصاب بالخجل. وهو لم يُحْرَجْ عندما رَفَضَ أكثرُ المسلمين دعواتِه إلى الإفطارات الرمضانيّة، فاكتفى بإفطارات رمضانيّة مع بعض «المسيحيّين» في مناطق كانت تسمَّى سابقًا بـ «الشرقيّة.» وهو اليوم يبشِّر، مثلَ غيره من سفراء واشنطن، بضرورة «التبادل الثقافيّ،» من دون أن يَعْلموا جميعُهم أنّ الحصول على تأشيرات دخول للعرب هو من المستحيلات هذه الأيّام حتى لمن كان مُفتتنًا بالسحر الأميركيّ الوهّاج.

خلاصة

إنّ الولايات المتحدة تُعِدّ العدّةَ لإعادة الاستعمار المباشر (أو المقنَّع بصعوبة) إلى منطقتنا. والأطراف العربيّة الرسميّة تتنافس لتقديم الولاء والطاعة: فوزير الخارجيّة القطريّ اعترف بأنّ المسؤولين العرب تنافسوا بعد ١١ أيلول للظهور بمَظْهر الخادم الأمين للمصالح الأميركيّة، حتّى على حساب علاقاتهم وتضامنهم.[١] وهناك تنطّح بين صفوف الحكومات

١ ـ انظرْ مقابلةَ وزير التوسُّل القطريّ مع محطة الجزيرة في شهر تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٢.

العربيّة للتسابق على الانخراط في معركة أميركا ضدّ ما تسمّيه هي وإسرائيل بـ «الإرهاب.» ورئيس اليمن يَسْمح لوكالة الاستخبارات الأميركيّة باغتيال مواطنيه من دون تجريم أو محاكمة. ووزير التربية والتعليم الكويتيّ يبشّرنا بأنّ الحكومات الخليجيّة ستنسّق فيما بينها لتغيير المناهج التعليميّة.[1] لكنْ من الصعب أن تكتفي واشنطن بهذا «الإصلاح»؛ ذلك أنّ الطالبان «المسيحيّة» الأميركيّة الوثيقة الصلة بالبيت الأبيض تركّز على «خطر» تَزْعم وجودَه في الآيات القرآنيّة نفسِها. وتحاول الحكوماتُ الصديقةُ للولايات المتحدة تشوية الأمور بإخبار شعوبها أنّ الحملة ضدّ الإسلام تَنْطلق من جناح متطرّف وهامشيّ، مع أنّ أبرز الكارهين للإسلام والمحرِّضين ضدّ المسلمين والمسلمات هو القسّ فرنكلين غرام ـ صديقُ عائلة بوش والواعظُ الذي اختاره الرئيسُ في حفلة قَسَمِ اليمين الرئاسيّ في العاصمة.

والحرب ضدّ العراق بدأتْ عامَ ١٩٩١ وهي لم تنتهِ بعد، وإنْ كانت حدَّتُها ستستعر عندما تقرِّر الولاياتُ المتحدةُ استبدالَ طاغيةٍ معارضٍ بطاغيةٍ مُوالٍ. والطغاة العرب الموالون للمصالح الأميركيّة أكثرُ من الهمّ على القلب (كما نقول في لبنان)، وبينهم مَنْ يَعْتقدون لسذاجتهم أنّ بإمكانهم نيلَ الحظوة التي تتمتّع بها إسرائيل في واشنطن (ومسلكُهم في التطبيع المعجَّل أبلغُ دليل).

إنّ شراسة الحملات الأميركيّة وما رافقها من إعلان الإمبراطوريّة المتكبّر في شهر أيلول ٢٠٠٢ لم يقابَلا بالذعر في الوسط الشعبيّ العربيّ. لكنْ يجب الاعترافُ بأنّ حكوماتنا مذعورة، وفرائصها ترتعد؛ والحكومات العربيّة التي كانت تُقْسم أمام شعوبها وإعلامها بأنّها لن تشاركَ في الحملة العسكريّة ضدّ العراق عادت والتزمت الصمتَ المطْبق أو صرَّحتْ (بالإنكليزيّة) لشبكة سي. أن أن. بأنّ التخويل الصادر عن مجلس الأمن من أجل شنّ حرب أميركيّة ضدّ العراق سيَلْقى تجاوبًا من حلفاء أميركا. وإقامة قواعد عسكريّة في بلدان الخليج أصبحتْ أمرًا ملازمًا لبقاء السلالات الحاكمة. وقد كلَّفتْ قاعدةُ «العديد» الجويّة نحو ١،٥ مليار دولار، وكانت قطر باشرتْ في إنشائها قبل أن يكون للإمارة سلاح جويّ خاصّ به. وسلطنة عُمان أعلنتْ في أوائل سنة ٢٠٠٣ أنّها هي الأخرى ستبدأ بإنشاء قاعدة عسكريّة جويّة متطوّرة مع شركة أجنبيّة مجهولة الهويّة والجنسيّة (قد تكون الشركة نيباليّة، مَنْ يدري؟)

حيال كلّ ذلك نتساءل: مَنْ كان يتوقّع أن تعود الشعوبُ العربيّةُ القهقرى في مسيرة استقلالها؟ مَنْ كان يتوقّع أن تصبح أرضُ البلدان العربيّة مباحةً لقواتِ أقلّ البلدان شعبيّةً في منطقتنا (بَعْدَ إسرائيل طبعًا؟) هل كانت الشعوب العربيّة التي تحمّلت التضحياتِ الجِسامَ من أجل قضيّة فلسطين، وتجرَّعتْ على مضضٍ تأجيلَ معركة الحريّات من أجل تحرير الأراضي العربيّة المحتلّة، تَعْلم أنّ مبادرةَ صحافيّ أميركيّ صهيونيّ معادٍ للمصالح العربيّة (توماس فريدمان) ستتحوَّل على أيدي طغاة العرب إلى مبادرة «سلام» عربيّة تَنْطق باسمِ كلِّ واحدٍ منّا؟!

لا شكّ في أنّ تاريخنا المعاصر كان مليئًا بالخيبات والنكسات والهزائم والخدع والألاعيب والمؤامرات والخذلان والذلّ. لكنّ القول الفَصْل لم يُقَلْ بعد، مادامت إرادةُ الرفض الفلسطينيّة والعربيّة باقيةً. غير أنّ نماذج عن حميد كرزاي مستنسَخٍ أميركيّاً تَظْهر في آفاق المشرق والمغرب بين الحين والآخر؛ وفي ذلك خطرٌ داهمٌ، لا على الأنظمة، بل على الاستقلال والسيادة والحريّة.

كاليفورنيا

١ ـ **الشرق الأوسط**، ٧ كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٣.